قواعد في الفقه السياسي الرشيد من السيرة النبوية

إعداد وبحث:

عباس أبو تيم شريفة

قواعد في الفقه السياسي الرشيد من السيرة النبوية

إعداد وبحث: عباس أبو تيم شريفة:

" مهتم بقضايا الفكر الإسلامي والصحوة الإسلامية والتنمية البشرية مستقل عن كل الجماعات والأحزاب وانتمي إلى أمتي الإسلامية"

»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»

البريد الالكتروني:

abas.abotim@gmail.com

»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»

للمتابعة على تويتر

@tiymo1

»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»

عدد صفحات البحث:

51 صفحة

»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»

تصميم وإخراج:

عزّة أحمد

»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»

حقوق النشر والطبع محفوظة لمركز عزّام

أو بإذن خطي من الكاتب

»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»»

الفهرس

مقدمة البحث.....3

تفكيك المؤامرة بمنطق المصلحة دون المفاصلة العقدية.....6

تميز المثل الأعلى (الخيال) عن الواقع الأدنى (الموضوعي).....6

وترك المصلحة المتحققة لأجل الانضباط العسكري ولمصلحة أرجح منها.....7

فقه تحييد الخصوم وإدارة الصراع.....7

التعاون الجزئي في المساحة المشتركة حتى مع من نختلف معهم في الأصول...9

مواجهة دعاية التشويه بالاستعراض الصامت.....10

إرجاء الهدف المقدور مع كثرة الخسائر وهشاشة المكاسب لحين تقل فيه الخسائر.....11

إظهار خطاب القوة والاستبشار في الوقت الحرج وواقع الاستضعاف.....12

نفي الدلالة المرفوضة وإثبات الدلالة المقبولة.....14

حدث نشأ بدلالة مقبولة، بعد تجريده من دلالة مرفوضة.....14

حدث قام علي حفظ وحدة الموقف، وهي من أخطر دلالات الموقف السياسي...15

تذليل العقبات المحتملة بموقف لا يعود بالخسارة على الجماعة والدعوة.....16

اتخاذ الإجراء الذي يمنع التصرف الضار بالجماعة من أحد أفرادها.....19

إيجاد درع عسكري يحقق النكاية بالأعداء متصل عقدياً بالجماعة.....20

استدراج الخصم السياسي المعروف بالمراوغة إلى التحدي المحرج.....21

استغلال الصلات الاجتماعية في تحقيق المكاسب السياسية.....22

تثبيت القاعدة الصلبة بالتحفيز المعنوي..... 24

معالجة المخالفة الصادرة من القاعدة الصلبة بالحزم والعقاب 26

الجمع بين الحكمة والعزة والحزم والترغيب والترهيب 30

الأسئلة العشرة لاكتشاف الصفات العشرة في الجماعة 32

صناعة القرار السياسي الفاعل 36

القيادة الميدانية والقيادة عن بعد 42

الجمع بين ثبات المبادئ ومرونة الوسائل في وقت القوة والضعف 44

فلسفة الحركة في الدعوة والتنظيم بين السر والعلن 49

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين اللهم صلي على محمد وآله وصبحه وسلم الذي أرسلته رحمة للعالمين فأقام الدين وساس الدنيا فأعز الله أصحابه بالتمكين وبعد.

نكتب هذه الكلمات بعد أن جنح كثير من المسلمين إلى طرفي نقيض:

- بين من ألغى العمل السياسي وأسقطه من حساباته وجعله رجس من عمل الشيطان وباباً للتنازل عن الثوابت فبالغ في سد الذرائع إلى درجة أن حكم على نفسه بالسجن المطبق.
- وبين من أغرق في السياسة الميكافيلية الذارائعية النفعية المتحللة من القيم فبالغ في فتح باب المصالح المرسلة فتجاوزها إلى المصالح الملغاة.

هذا البحث المتواضع نحاول الوقوف من خلاله على مواقف من السيرة النبوية نستخلص منها الدروس والعبر في الفقه السياسي الرشيد المتوازن.

إن قراءة الاجتزاء وقصور التدبر للسيرة النبوية بسبب القراءات الحزبية والإسقاطات التي تتوافق مع سياسة الجماعة عند كل الجماعات الإسلامية - ولا تكاد تخلص منها جماعة إسلامية - فهناك من يلقي الضوء على الجانب الجهادي، وهناك من الجماعات من تغرق في إسقطات الجانب الدعوي، ومنها ما يضخم الجانب السياسي وكل ذلك قراءات حزبية بشكل اجتزائي من المشهد الكلي لشمول الدين والسيرة.

هناك مشكلة في صنفين من الجماعات الإسلامية:

- صنف لا يخرج عن سقف (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة)
- وصنف لا ينزل عن سقف (واقتلوهم حيث ثقفتموهم)

هناك من الجماعات الإسلامية من يلغي تدبر السيرة بحجة اكتمال الشريعة والعبرة بما استقرت عليه الحكم في نهاية اكتمالها وكل ما كان في زمن الضعف غدا من المنسوخ الذي لا يعمل به في حال، وهناك من يراوح في تدبر المرحلة المكية ولا يقبل إلا بإنزال وصف الاستضعاف على الأمة وهناك من يتخبط فتارة يقيس على الحالة المكية وتارة على المرحلة المدنية وتارة بين بين، والحق أن اكتمال الشريعة كأحكام لا يعني أن الظروف الموضوعية من القدرة والتمكين ونفي العجز والضعف مواتية لإقامة الشريعة كاملة أو على ما استقر من أحكامها. وبناء على ما سبق أقول إن تدبر السيرة النبوية مادة غزيرة في الفقه الحركي ولكن المراجعات دائماً يجب أن تكون مراجعة علمية للخطأ وليست مراجعات سياسية في فقه السيرة النبوية تستطيع تبرير كل الأخطاء ولكن ضابط العلم هو الضابط الأساس في فقه النص وإنزال النص على الواقع، فليس تقسيم مراحل بناء الجماعات إلى مكية ومدنية هو قضية توقيفية؛ والقياس على مراحل السيرة يكون صحيح إذا اتحدت العلة بين الفرع

والأصل بتخريج المناط وتحقيق مناط القياس ألا وهو التمكين من عدمه وما هي حدوده الدنيا وما هي حدوده العليا.

عجيب الاستدلال أن يُستدلّ بروايات السيرة على الشيء ونقيضه، فقد هجر النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وكان منهم كعب بن مالك صاحب اليد الطولى في الإسلام، ومن جهة أخرى عفا عن حاطب بن أبي بلتعة البدري لمّا نقل الأسرار العسكرية إلى مكة وأهلها، فهذان الاثنان وقعا في خطأ يضرّ الدولة، وخطأ حاطب أشدّ من خطأ كعب، وهما صاحبا سبق في الإسلام، فمن العجيب في الاستدلالات الحركية المشتهرة أن يُستدعى مثال كعب رضي الله عنه حين يُراد الهجر والتشنيع ويُستدعى مثال حاطب رضي الله عنه حين يُراد العفو والإقالة، كل ذلك بشعور أو دون شعور بحجم التناقض الذي يقع فيه المستدلّ حين يستدلُّ على الشيء ونقيضه من روايات السيرة باسم التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولو أننا قلنا إن فعله عليه الصلاة والسلام كان بمراعاة المصالح السياسية والشؤون الداخلية، وهو بجموع أفعاله يرشدنا إلى تقدير الموقف حسب ما يصل إليه الإمام وأهل الشورى، لكان ذلك أولى وأحسن.

إن الجزء التشريعي في سيرته عليه الصلاة والسلام أشبه بالخيط الدقيق الذي يحتاج منّا إلى تمييزه عن غيره حتى يتضح للمؤمن كيف يتأسى به، ويميز بين ما هو من أحكام الإمامة والتي لا تعتبر إلزامية وإنما صدرت عنه باعتباره إمام للمسلمين والتي يراعى فيها المصلحة في وقت من الأوقات، وبين ما هو من أحكام التبليغ العامة بوصفه مبلغاً عن الله تعالى.

تعريف السياسة اصطلاحاً: هي حكمة (الجماعة) وفق المنهج الرشيد المنشئة (لدولة) الدعوة العالمية (الخلافة) النيابة عن الله تعالى المقيمة (لحضارة) الحق، والتي هي عبادة الله وعمارة الأرض.

والسياسة لغة: ساس الدابة أو الفرس: إذا قام على أمرها من العَلَف والسقي والترويض والتنظيف وغير ذلك.

وأحسب أن هذا المعنى هو الأصل الذي أُخِذ منه سياسة البشر. فكأن الإنسان بعد أن تمرس في سياسة الدواب، ارتقى إلى سياسة الناس، وقيادتهم في تدبير أمورهم. ولذا قال شارح القاموس: ومن المجاز: سُسْتُ الرعية سياسة: أمرتهم ونهيتهم. وساس الأمر سياسة: قام به. والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه. في تاج العروس (169/4)

لذلك ترى أن الحكمة الإلهية قدرت للنبي صلى الله عليه وسلم الاشتغال برعاية الغنم فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بعث الله نبياً إلا رعى

الغنم. فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة.) ليتهيأ من رعاية الغنم إلى رعاية الأمم.

قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة.. لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح أحسن، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق.. وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة.. ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة..

⛔ ولم ترد كلمة **السياسة** في القرآن الكريم

على أن السنة النبوية قد وجد فيها حديثاً تضمَّن ما اشتقَّ من السياسة، وهو الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون". قالوا: فما تأمرنا؟ قال: "فُوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم". رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3455) عن أبي هريرة، ومسلم في الإمارة (1842)، وأحمد في المسند.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (1)

تفكيك المؤامرة بمنطق المصلحة دون المفاصلة العقدية

كثيرا مما تعرض الجماعة الى مؤامرة خا رجية تشترك فيها أطراف محلية تغريها القوة الخارجية بالتمرد واحداث الفتن داخل الدولة الاسلامية

هنا لا بد للقيادة من استعمال الحنكة السياسية في تفكيك هذا التآمر وتحيد الداخل لديه واحتواءه بمنطق المصالح المشتركة

والعلاقة العصبية خصوصاً عند من تضف وشائج الايمان بالفكرة الجامعة لكيان الدولة والمجتمع وبذلك تتجنب القيادة السياسية الواعية صراعا داخليا يقطف ثماره المتربصين من الخارج والذين يظنون أن الامر سيحسم بالحل العسكري

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة: آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتليكم ونسبي نساءكم فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم يريدون أن تقاتلوا بأبنائكم وإخوانكم؛ فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا.

وهذا الموقف يتضمن قاعدة سياسية هامة وهي توجيه أعداء الدعوة إلى اتخاذ الموقف المناسب للدعوة بمنطق المصلحة. وتطويق المؤامرة باقل الخسائر وبدون مواجهة عسكرية بتهمة العمالة والخيانة العظمى

* "من كتاب التصور السياسي للحركات الإسلامية"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (2)

تميز المثل الأعلى (الخيال) عن الواقع الأدنى (الموضوعى)

ومن شهد الواقع ترك المزايدات

فهذا رجل يزايد على جمع الصحابة رضوان الله عليهم، وروى الإمام البيهقي في دلائل النبوة أن رجلاً قال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (والله لو أدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركناه يمشي على الأرض)، فكأن هذا الرجل ينسب التقصير إلى الصحابة في توقيره عليه الصلاة والسلام، فيقول: لو كنت أنا مكانكم ما تركته يمشي على الأرض، أي: لحملته على رأسي.

فقال له حذيفة : يا ابن أخي! أكنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا -أي: في يوم الأحزاب- وقد حفر كل منا لنفسه حفرة يدفن نفسه فيها من البرد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من يأتيني بخبر القوم وهو معي في الجنة؟ قال حذيفة : والله ما قام أحد)، مع أن الصحابة كانوا يتسابقون على أقل من ذلك، ومع ذلك من شدة البرد ما استطاع أن يقوم أحد.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لديهم جلد عجيب، فالذي يذهب إلى مكة الآن ليحج لا يكاد يطيق الحر مدة خمسة أو ستة أيام مثلاً، وهم قد كانت هذه حياتهم بصفة مستمرة، فقد كان عندهم جلد إلى هذا الحد العجيب، ومع ذلك لا يقوم أحد؛ فلك أن تتصور شدة البرد التي كانت موجودة آنذاك!

قال: (والله ما قام أحد، فقال: من يأتيني بخبر القوم وهو معي في الجنة؟

قال: فما قام أحد.. ثلاث مرات، قال حذيفة: فتقاصرت خشية أن يدعوني، فقال لي: قم يا حذيفة ! قال: فقمت، ولم يكن من طاعة الله ولا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد،

قال: فدعا لي، وقال: اذهب إلى القوم وائتني بخبرهم، ولا تذعرهم علينا.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (3)

وترك المصلحة المتحققة لأجل الانضباط العسكري ولمصلحة أرجح منها

حادثة حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- مع أبي سفيان

-رضي الله عنه- قبل إسلامه ويوم كان رأس الكفر في غزوة الخندق، عندما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحذيفة -رضي الله عنه-: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولاتُحدِثَنَّ شيئًا حتى تأتينا)، قال حذيفة -رضي الله عنه- .... ثم قال أبو سفيان: "يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتّنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل"، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فو الله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولو لا عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إليّ أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم.

فهذا رأس الكفر ولا شك أن من مصلحة الإسلام قتل رؤوس الكفر بشكل عام، إلا أنه في تلك الحادثة كانت مصلحة الإسلام تأجيل قتله للأسباب منها أنه قد يستنفر قريش، وترجع لقتال الرسول -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون معه أخذًا بثأر أبي سفيان، ومن هنا أبيح عدم قتله لتجنب المسلمين أمرًا كان فوق طاقتهم.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (4)

فقه تحييد الخصوم وإدارة الصراع

المفاوضات مع غطفان لكسر الحصار عن المسلمين

لما اشتد على المسلمين البلاء جراء الحصار المفروض عليهم من الأحزاب، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، وكتبوا في ذلك كتاباً ، وأرسل الرسول لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليستشيرهما ، فقالا: يا رسول الله أمرٌ تحب فنصنعه؟، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ وكالبوكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما)، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرىً أو بيعاً، أحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا).

في هذه المفاوضات التي جرت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وغطفان نستخلص عدة دروسٍ في فقه الموازنات:

الأول: الموازنة بين أصناف الأعداء لاختيار الحلقة الأضعف ليتم اختراق صفوفهم من خلالها، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو لم يعرض المفاوضات على قريش ولا على اليهود لأنهم هم أساس الصراع، والحرب معهم حرب عقيدة ومبدأ ونزاع سياسي حاد، وإنما عرض المفاوضات على غطفان لأنه يعلم صلى الله عليه وسلم أنها وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعثٍ عقائديٍ يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول صلى الله عليه وسلم الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود أو قادة قريش

كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: يتمثل في عرض الرسول ثلث ثمار المدينة على غطفان مقابل أن تسحب جيوشها، وترجع إلى بلادها، وتخذل بين الأحزاب المتحالفة ضد المسلمين.

إن دفع المال للعدو مفسدةٌ تلحق بالمسلمين وهي مصلحةٌ للعدو يتقوى بها عليهم، ولكنه إن حقق مصلحةً كبرى أو أزاح عن المسلمين مفسدةً كبرى كان لابد منه، وهذا ما ارتآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى أن دفع ثلث ثمار المدينة لغطفان سيؤدي إلى مصلحةٍ كبيرةٍ تتمثل في فك حصارهم عن المدينة، وتخذيلهم للأحزاب المتحالفة، خاصةً وأنه ليس باستطاعة المسلمين التصدي لهذه الأحزاب مجتمعة، وقد طال أمد الحصار، وقد تجلى هذا المقصد في قوله عليه الصلاة والسلام لقائدي غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟».

وفي قوله لسعد بن معاذ : والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانبٍ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما).

وفي فعل الرسول عليه الصلاة والسلام إرشادٌ للمسلمين إلى عدة أمور منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الإستراتيجي للقيادة المسلمة تحييد من تستطيع تحييده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام.

ولكن الأمر لم يتم لأن السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رفضا هذا الاتفاق بعدما علما أنه ليس بالوحي، وإنما هو من باب السياسة وكسر شوكة العدو، وهو مجالٌ رحبٌ للاجتهاد واختلاف الآراء، وهو كذلك مجال الاختلاف في تحديد المصالح والمفاسد والترجيح بينها.

فالسعدان رضي الله عنهما رأيا أن لدى المسلمين من الهمة والروح المعنوية العالية ما تؤهلهم للاستمرار في الثبات في مواقعهم حتى تنكسر عزيمة المشركين أمام عزيمتهم، من غير أن يدفعوا شيئاً لهؤلاء الكفرة يتقوون به على المسلمين أو يذلوهم من خلاله، لذلك كان جواب سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرىً أو بيعاً،

أحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

وقد أقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وكانت نتيجة المعركة كما هو معلوم اندحار الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال.

مواجهة التحدي الأصعب مع تماسك وحدة الجماعة واجتماع الكلمة خير من مواجهة التحدي الأسهل مع تفرق وحدة الجماعة واختلاف الكلمة.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (5)

التعاون الجزئي في المساحة المشتركة حتى مع من نختلف معهم في الأصول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: ((والله لا تسألني قريش اليوم خطة فيها صلة الرّحم إلّا أعطيتهم إيّاها))،

قال ابن القيم أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبُغاة والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمةً من حُرُمات الله –تعالى-، أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله -تعالى-، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكلٌّ من التمس المعاونة على محبوب لِلهِ –تعالى- مُرضٍ له، أجيبَ إلى ذلك كائِناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ لله أعظم منه، وهذا مِن أدقِّ المواضع وأصعبِهَا، وأشقِّهَا على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة.

* "زاد المعاد في هدي خير العباد"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (6)

مواجهة دعاية التشويه بالاستعراض الصامت

في عمرة القضاء

دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه مكة، وطافوا بالكعبة، وأمرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإظهار القوة والجلد في طوافهم وسعيهم، رداً على إشاعة قريش بأنهم ضعفاء قد أوهنتهم حمى يثرب، فسارعوا في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، كما هرولوا في السعي، ليُظهروا للمشركين قوتهم .. وكانت قريش قد خرجت من مكة وتجمعت على جبل قعيقعان، ينظرون إلى المسلمين في طوافهم وسعيهم، ويتعجبون من قوتهم ..

من الفقه السياسي في السيرة النبوية(7)

إرجاء الهدف المقدور مع كثرة الخسائر وهشاشة المكاسب لحين تقل فيه الخسائر وتعظم المكاسب

في قصة صلح الحديبية

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه بعد رؤيا منامية إلى مكة مع أصحابه وهو عازم على أداء العمرة ولما وصل إلى الحديبية خلأت القصواء وحبسها حابس الفيل وجاء الوحي من الله تعالى إلى نبيه عن الكف من دخول مكة والسعي في الصلح فقال عليه الصلاة والسلام ويح قريش قد أكلتهم الحرب لا يسألوني خطة يصلون فيها الرحم إلا أعطيتهم إياها وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة صلح مع سهيل بن عمر فيه شروط مجحفة في حق المسلمين، واعتبرها عمر بن الخطاب في حينها إعطاء للدنية ، وقفل الرسول صلى الله عليه وسلم عائداً إلى المدينة وقد أمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا فتثاقلوا في الأمر حتى فعل إمامهم.

وتأخر الفتح ثلاث سنوات بعد المعاهدة وقد علل البيان الرباني الخسائر المحتملة لو تم الفتح والقتال في حينها

قال تعالى (وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (الفتح - 25)

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً) (الفتح-24)،

وجواب (لولا) في الآية محل البحث غير مذكور ولكنه يعرف من هذه الآية السابقة عليها، أي لولا وجود هؤلاء لما كفّ الله تعالى أيديكم وأيديهم عن القتال الذي كان سينتهي حتماً بانتصار المسلمين كما في الآية السابقة عليهما (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً) (الفتح-22).

فيكون معنى الآية أنه لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات ما زالوا يقيمون بين المشركين يخفون إسلامهم تقية واستضعافاً أو لمصالح معينة لكونهم عيوناً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على المشركين وأنتم لا تعرفونهم، لأوقع الله تعالى القتال بينكم وبين قريش وقد اقتحمتم عليهم ديارهم والنصرُ لكم، لكن الله تعالى كفّ أيديكم وأيديهم عن القتال، حمايةً لكم ولأولئك المؤمنين، لأنكم بسبب جهلكم بهم فيخشى عليكم من إصابتهم بقتل أو جرح فتصيبكم بسبب ذلك (معرّة) أي ضرر وعار في الدنيا أو الآخرة، لأن المشركين سيعيرّون

المسلمين ويقولون أن هؤلاء مجرمون قساة لم يرحموا حتى جماعتهم المؤمنين، وسيقولون أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يراعي حرمة بيت الله الآمن فقاتل على أرض الحرم.

ولو تزَّيل هؤلاء المؤمنون أي انفصلوا وتباينوا عن مجتمع المشركين لوقع العقاب على الكافرين خاصة (لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا) من دون محذور، كما أن الفريقين متزايلون يوم القيامة فيحل العذاب بالكافرين.

والغرض الأخر الذي لوحظ في تجنب القتال وكفّ الأيدي عنه هو قوله تعالى {لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}الفتح : 25 أي لإعطاء مزيد من الوقت والفرصة حتى يخرج المؤمنون من وسط قريش ويأووا إلى كهف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرحيم، أو حتى يهتدي من يشاء الله من هؤلاء المشركين والمعاندين، وهؤلاء لا تعرفون عنهم شيئاً أكيداً، فلو تزيل هؤلاء أي تحقق الغرض بهداية من يُريد الله تعالى هدايته وانفصالهم عن المشركين لعذبنا الذي كفروا، **فالكفّ عن القتال يحقق مصلحتين:**

1- دفع الخطر عن المؤمنين غير المعروفين ودفع المعّرة عن المسلمين . (المفسدة المحتملة).

2- إعطاء الفرصة لهداية المزيد من الأعداء للأيمان .(المصلحة المتحققة)

لذلك سمى الله تعالى الحديبية فتحاً، وجاء في سورة النصر (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً).

فدخول الناس في دين الله أفوجاً ما كان ليتم لولا صلح الحديبية وما كان بعدها من عمرة القضاء ولو دخل عليهم بقتال لكانت الغلبة والنصر للمسلمين ولكن حتى تفنى قريش عن بكرة أبيهم ومع هلاك من يستخفي بإيمانه من المستضعفين.

لذلك قضت حكمة الله تعالى إرجاء الفتح مع أنه هدف مقدور ثلاث سنوات حتى لا تقع المعرة بقتل مسلمين مستخفين بإيمانهم ولكي تتفتح قلوب قريش للإسلام فتضاعف عدد المسلمين من الحديبية إلى الفتح عشرة أضعاف ودخلوا مكة بدون قتال وخسائر فأسلموا عن بكرة أبيهم.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (8)

إظهار خطاب القوة والاستبشار في الوقت الحرج وواقع الاستضعاف

والتنبيه إلى الزلل والثغرات في وقت النصر وواقع الاستقواء

في قصة الخندق

عن الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ الأَنْصَارِيُّ ، قَالَ : لَمَّا كَانَ حِينَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، عَرَضَ لَنَا فِي بَعْضِ الْخَنْدَقِ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ شَدِيدَةٌ ، لا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَلَمَّا رَآهَا أَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: " بِسْمِ اللَّهِ "، وَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَهَا ، فَقَالَ : " اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ "، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، فَقَطَعَ ثُلُثًا آخَرَ فَقَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الأَبْيَضَ "، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: " بِسْمِ اللَّهِ "، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي السَّاعَةَ ".دلائل النبوة للبيهقي رقم الحديث: 1335

تخيَّل عشرة آلاف يحيطون بالمدينة المنورة إنها ضائقة شديدة جدًّا، والرسول في وسط هذه الضائقة وهم في مخمصة وخوف وجوع وبرد يطلق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه البشارات وينتقل بهم من واقع ضعفهم إلى أفق بعيد من وراء سجوف الغيب ليحدثهم عن النصر والظفر فترتفع معنوياتهم كيف يكون رد المسلمين وهم يسمعون بشارات النبي وهم في هذه الضائقة؟ قال المؤمنون كما وصفهم الحق تبارك وتعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: 22].

المسلمون في هذه الضائقة علموا أن نصر الله قريب؛ لأن نصر الله يأتي بعد اشتداد الأزمات. أما المنافقون فلما رأوا الفجوة الواسعة بين إمكانيات المسلمين وإمكانيات الأحزاب، قالوا كما أخبر الحق تبارك وتعالى عنهم: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا} [الأحزاب: 12].

وكانوا يقولون إن محمد يعدنا أن نأكل كنوز فارس وأحدنا لا يأمن على نفسه الخروج للخلاء.

وفي الصورة المقابلة الواقع قوة والخطاب تحذير وتنبيه سمع الناس في عهد الرسول بمقدم أبي علاء الحضرمي من البحرين بأموال معه، فتجمعوا حول الرسول، فقالوا: ((فابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على الذين من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)) رواه البخاري

هكذا كان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام يحذر الناس والأخيار في عهده من انفتاح الدنيا عليهم والاغترار ببهرجها ومتاعها الزائل الحقير، ومن غلب عليه حب الدنيا فإن النتيجة الطبيعية الهلاك؛ هلاك المجتمع، وهلاك الأشخاص..

لذلك تجد الخطاب الرباني بعيد بدر وهي نصر عظيم ويوم الفرقان يبدأ بالتنبيه إلى الثغرات والأخطاء التي ظهرت من الاختلاف على الغنائم،

قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (1) الأنفال

وتجد بعيد هزيمة أحد، والفشل بعد الظفر، يبدأ الخطاب الرباني بتضميد الجراح وتسلية المؤمنين،

قال تعالى (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)(140) أل عمران

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (9)

نفي الدلالة المرفوضة وإثبات الدلالة المقبولة

وفي غزوة أحد حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الغزوة وجمع المسلمين حوله ليردوا علي أبي سفيان الذي أراد أن يحقق نتيجة سياسية للغزوة...

وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: " لا تجيبوه " فقال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: " لا تجيبوه ". فقال أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك! قال أبو سفيان: أعلى هبل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أجيبوه ". قالوا: ما نقول؟ قال " قولوا: الله أعلى وأجل ". قال أبو سفيان. لنا العزي ولا عزي لكم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أجيبوه " قالوا ما نقول؟ قال " قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم ". قال أبو سفيان يوم بيوم بدر، والحرب سجال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أجيبوه "! قالوا: ما نقول؟ قال " قولوا: قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار ".

حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار ورائهم بالجيش وأقام ثلاث ليال حتى سميت غزوة حمراء الأسد.

وكان في هذا أيضاً نفي دلالة مرفوضة وإثبات دلالة مقبولة.

فالوقوف بعد أحد ثلاث لنفي دلالة مرفوضة وهي قبول الهزيمة وإثبات دلالة مقبولة وهي الإصرار على مواصلة الجهاد بعد حرمان العدو من تحقيق أي نتيجة سياسية لصالحه

* "من كتاب التصور السياسي للحركات الإسلامية "

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (10)

حدث نشأ بدلالة مقبولة، بعد تجريده من دلالة مرفوضة.

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد: إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم علي شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل ما شئت، فترك حتى كان الغد ثم قال له، ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك: إن تنعم علي شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير.

فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلي نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ...

والملاحظة الأساسية في الحديث أن ثمامة ذكر الدم في اليوم الأول؛ ولذا تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوطاً؛ لأنه لو تركه بعد ذكره الدم لكان معني الموقف هو الطمع في الدية أو الفداء. وفي اليوم الثالث لم يذكر ثمامة الدم أو المال فقال: عندي خير فقال أطلقوا ثمامة. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والبيهقي وأحمد، والقصة ذكرها ابن عبد البر في ترجمة ثمامة بن أثال الحنفي (205/1)

إن القاعدة السياسية التي يتضمنها هذا الموقف هي شرط جوهري في الممارسة السياسية وإنشاء الموقف السياسي وهو: الوضوح ومعناه أن يكون للموقف تفسير واضح لا يحتمل غيره ولذلك ترك رسول الله ثمامة حتى أصبح لإطلاق سراحه تعبير واحد ومعنى واحد هو الإكرام الذي لا يختلط به معنى الطمع في الدية أو الخوف من الثأر.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (11)

حدث قام على حفظ وحدة الموقف، وهي من أخطر دلالات الموقف السياسي.

لما غدر يهود بني قريظة بالمسلمين في غزوة الخندق وتحالفوا مع المشركين كان لابد من إجلائهم؛ لأن وجودهم كان مرهوناً بالمعاهدة التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن تحالف اليهود مع الأنصار قبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم والذي لم يزل قائماً بعد دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كان يمثل مشكلة خطيرة...

فالواجب إجلاؤهم وقتالهم... وهم حلفاء الأنصار في نفس الوقت... فما الموقف...؟

كان الموقف السياسي هو إحالة أمرهم إلي الأنصار ذاتهم... فطلب منهم رسول الله أن ينزلوا على حكم من يختارون. وكان من الطبيعي أن يكون اختيارهم من الأنصار باعتبارهم حلفاءهم؛ فاختاروا سعد بن معاذ سيد الأنصار.

وكما تقول كتب السيرة: " فلما أصبحوا نزلوا على حمك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت...

فلما كلمته الأوس قال: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك إلى سعد بن معاذ... فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطؤوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم؟ فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلي دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

* "من كتاب التصور السياسي للحركة الإسلامية رفاعي سرور "

فلما انتهي سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا إلي سيدكم... فقاموا إليه، فقالوا يا أبا عمرو، إن رسول الله قد أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ها منا، في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معرض عن رسول الله إجلالاً له؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. حدث قام على حفظ وحدة الموقف، وهي من أخطر دلالات الموقف السياسي.

أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل (191/6/ح 3043) مختصرًا، ورواه أحمد بطوله، وذكره الهيثمي في المجمع، وقال الحافظ في الفتح (51/11) بعد أن عزاه لأحمد: وسنده حسن.

* "من كتاب الصور السياسي للحركات السياسية"

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (12)

تذليل العقبات المحتملة بموقف لا يعود بالخسارة على الجماعة والدعوة وإرفاقه بالحزم والتهديد غير المباشر

كان العباس صديقًا قديمًا لأبي سفيان، ويرى الأزمة التي وضع فيها أبو سفيان، ويرى الانهيار الذي تعرض له؛ لذلك طلب العباس من الرسول أن يُخرِج أبا سفيان من هذه الأزمة، فقال: "يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا". [1] ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني (الجزء الثالث والرابع) ص403.

وهنا بدأ الرسول يفكر في الأمر، فمن الواضح أن أبا سفيان أسلم اضطرارًا، ولم يقتنع بعدُ بالنبوة، وإن لم يشعر بالانتماء الحقيقي للنظام الجديد، فقد ينتهز أي فرصة للانقلاب على المسلمين، وأبو سفيان عظيم مكة منذ عدة سنوات، وإن لم ينزله منزله، فإن هذا سيؤثر سلبًا في أبي سفيان، وفي أهل مكة جميعًا. ثم إن الرسول إذا أعطى أبا سفيان شيئًا فسوف يستخدمه لصالح الإسلام، ويكون أبو سفيان من رجاله وولاته بدلاً من أن يكون من أعدائه، وقد يرى ذلك بقية زعماء مكة، فيطمعون في شيء من سلطان المسلمين.

وقرر الرسول أن يعطي أبا سفيان شيئًا، والرسول في ذلك الوقت لا يملك مالاً كثيرًا يليق بزعيم مكة، ولا يستطيع أن يَعِده بإمارة؛ لأنه لم يتأكد بعدُ من صدق إيمانه، بل على العكس فالظاهر أنه قد أسلم مضطرًّا، وقد يؤذي المسلمين بإمارته، سواء على مكة أو على غيرها؛ لذلك فكر الرسول في إعطائه شيئًا ينفع ولا يضر، فقال الرسول : "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ"

[2] رواه أبو داود (3022)، وحسنه الألباني.

وخصَّ الرسول أبا سفيان بخِصِّيصة تجعله متميزًا على أقرانه من أهل مكة، وهي أن داره أصبحت مأوًى لأهل مكة، وأمانًا لهم. ولكن المتدبر في الأمر يجد أن الرسول أعطاه شيئًا بلا خسارة، وهذا الشيء لا يقدِّم ولا يؤخر عند المسلمين، فهو يكسب قلب أبي سفيان؛ لأن أي إنسان يغلق عليه بابه سيكون في نفس الأمن الذي في دار أبي سفيان، فلا ميزة واضحة، ولكن هذا الأمر قد أحدث نوعًا من الفخر الشرفي، ينفع ولا يضر.

وهنا نجد التوازن الرائع من الرسول في التعامل مع أبي سفيان، وسوف يدخل أبو سفيان بهذه المنحة التي أعطاها له الرسولُ إلى مكة دافعًا للناس أن يدخلوا بيوتهم، وألاّ يقاوموا، وفي هذا تسكين لثورة الغضب في داخل مكة المكرمة، وفي هذا تسهيل لفتح مكة المكرمة دون خسائر كبرى؛ فهي حكمة سياسية هائلة، وفقه دعويّ على أعلى مستوى.

وهنا نجد ذكاء الرسول في التعامل مع أبي سفيان، فقد خاطب أبا سفيان في البداية بالقوة والحسم، ثم بعد إسلامه أعطاه شيئًا يفخر به، ويمتلك به قلبه مع عدم فَقْد الدولة الإسلامية لشيء.

حوار بين العباس بن عبد المطلب وأبي سفيان

أراد الرسول ألاّ يترك أي فرصة للشيطان يدخل بها إلى قلب أبي سفيان، فقد يكون إسلام أبي سفيان إسلامًا عارضًا؛ للخروج من هذا المأزق، فأراد الرسول أن يزلزل معنويات أبي سفيان حتى لا يبقى عنده أي أمل في المقاومة، فماذا فعل الرسول الحكيم ؟

أمر الرسول العباس بن عبد المطلب أن يقف بأبي سفيان عند مكان ما ليشاهدَ الجيوش الإسلامية، وأعدادها، وعُدَّتها، وتنوع أفرادها، وتعدد قبائلها. لقد أراد الرسول أن يريه الأحزاب المؤمنة، وشتان بين هذه الأحزاب والأحزاب التي قادها أبو سفيان قبل ذلك؛ ليعلم أبو سفيان أنه لا طاقة له بهؤلاء، قال رسول الله للعباس: "يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللَّهِ فَيَرَاهَا"[3] ابن كثير: السيرة النبوية 549/3.

والعباس نفّذ الأمر النبوي، وأخذ أبا سفيان ووقف عند المنطقة التي ذكرها الرسول، ووقف أبو سفيان يشاهد العرض العسكري الإسلامي المهيب، وانبهر أبو سفيان؛ فقد كان آملاً في المقاومة، وقد شاهد أبو سفيان هذه الأعداد منذ ثلاث سنوات تقريبًا في غزوة الأحزاب، وكان هو يرأسهم جميعًا، ورأى أبو سفيان في هذه الجيوش عدة قبائل كانت تربطه بها علاقات قوية، ولم يكن بينه وبينها عداء يذكر، فإذا بهذه القبائل جميعًا تجتمع تحت راية رسول الله. ورأى أبو سفيان وحدة الصف واجتماع الجميع على قلب رجل واحد؛ فقد رأى أبو سفيان الألفة والمودة والصلابة التي في عيونهم، وفي تصميمهم، وفي مشيتهم، وهذا كله زلزل أبا سفيان. إن انبهار أعداء الأمة بالصف المسلم المتحد أمرٌ لا يُنكر كما رأينا، ولننظر إلى وصف العباس لحالة أبي سفيان عند رؤية الجيوش الإسلامية، يقول العباس: ومرت به القبائل على راياتها، كل قبيلة تسير رافعة الراية، فكلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: من هؤلاء؟

فأقول: سُليم.

فيقول: ما لي ولسُليم؟ أي: لماذا تأتي سُليم وتحاربني؟ أوْ كيف طاقتي وسليم؟ فتمر القبيلة الأخرى فيقول: من هؤلاء؟

فأقول: مُزَيْنة.

فيقول: ما لي ولمزينة؟

وهكذا كلما مرت قبيلة سأل من هؤلاء، فيرد العباس: بنو فلان وبنو فلان، فيقول: ما لي ولبني فلان. حتى مر رسول الله في الخضراء، والخضراء كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منها إلا الحَدَق. يعني الكتيبة مغطاة بالدروع والسلاح، لا ترى إلا أعينهم من خلال الدروع، قال أبو سفيان -وهو في أشد حالات الانبهار-: من هؤلاء يا عباس؟

قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.

فقال أبو سفيان في منتهى اليأس: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا.

قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة.

فقال: فنَعَمْ إذن[4] ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني (الجزء الثالث والرابع) ص404.

لقد اقتنع أبو سفيان أخيرًا أنها النبوة.

أبو سفيان يدعو قريشًا للدخول في الإسلام خرج أبو سفيان حتى دخل مكة وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمدٌ قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به.

وهنا يتحقق غرض الرسول من إعطائه هذا الفخر، ونجد أبا سفيان يمنع قريشًا من المقاومة؛ ليحقن دماء قريش، وفي الوقت نفسه يحقن دماء المسلمين. إنه الفقه السياسي العالي من الرسول .

ثم قال: فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ولم يقل: ومن دخل داره، ومن دخل المسجد، واكتفى بالجانب الذي يُعلِي من شأنه؛ ليظهر فخره.

فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، وهي من أشد المقاومين للإسلام، ومن أشد المحاربين له، فأخذت بشاربه وقالت للجميع: اقتلوا الدَّسِم الأَحْمَس، قُبِّح من طليعة قوم!

فهي تسبُّ زوجها أمام الناس، فقال: ويحكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.فقال له أهل مكة: ويلك! فما تغني عنا دارك. أي: إن دارك لا تتسع لأهل مكة كلهم. فقال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس ودخلوا إلى ديارهم، وإلى المسجد [5] ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثاني (الجزء الثالث والرابع) ص404، 405.

وهذا موقف أبي سفيان، فقد أصبح في نهاية اليوم مدافعًا عن دخول الرسول إلى مكة المكرمة، فاتحًا له الطريق.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (13)

اتخاذ الإجراء الذي يمنع التصرف الضار بالجماعة من أحد أفرادها بإجراء يراعي الحرص على تماسك الجماعة

دخلت الجيوش الإسلامية كما خطط لها رسول الله ، ومكث معظم أهل مكة في بيوتهم، وكانت شوارع مكة في الأغلب خالية من المارَّة، وكانت رغبة الرسول الأكيدة ألاّ يحدث قتال، وخاصةً في هذا البلد الحرام، وأحب البلاد إلى قلبه. ومع وضوح هذه الرغبة في كلام وأفعال الرسول إلا أن بعض الصحابة كانت تراودهم أحلام الانتقام ممن أذاقوا المسلمين العذاب ألوانًا، ومن ذلك مثلاً ما قاله سعد بن عبادة -سيِّد الأنصار وقائد كتيبة الأنصار- في حماسة وهو يدخل مكة: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة".

وهذه الكلمات تعبر عن رغبة في القتال، مع أن هذه الكلمات لها خلفية شرعية، ولها منطق مقبول إلا أنها لا ترضي الرسول، والخلفية الشرعية لكلمة سعد بن عبادة أن الرسول قال عن مكة: "وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ"[7]؛ أي أن القتال في ذلك الوقت قتالٌ شرعيٌّ. ولكن الرسول كان يريده عند الاضطرار فقط؛ فالأصل ألاّ نقاتل، ولكن المنطق كان عند سعد بن عبادة منطق مفهوم ومقبول، ومنطقه كان يؤيده هذا الأمر في رأي العموم من الناس؛ لأن مكة الآن محكومة بأهل الكفر وقتالهم واجب، وهؤلاء هم الذين عذبوا المؤمنين، وهم الذين أخرجوا الرسول، وهم الذين آذوه هو وأصحابه قبل ذلك، بل إن سعد بن عبادة نفسه تعرض لأذى قريش بصورة مباشرة في بيعة العقبة الثانية؛ ففي آخر البيعة أمسك المشركون بسعد بن عبادة وضربوه ضربًا مبرحًا مع كونه سيد الخزرج، ومن الشخصيات المهمة في الجزيرة العربية، فلا شك أن هذه الحادثة تركت في نفسه أثرًا، فأراد أن يعاملهم بالمثل.

ومن ثَمَّ قال مثل هذه الكلمات. غير أن الرسول لم يكن يريد قتالاً، ووصلت إليه كلمة سعد بن عبادة عن طريق أبي سفيان، وأبو سفيان قد أصابه الرعب عند سماع كلمة سعد بن عبادة، وأسرع إلى الرسول يستوثق من أمر الأمان لأهل مكة، فقال عندما سمع هذه الكلمات: "الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ"[8].

صحح الرسول المفاهيم، ولم يكتفِ الرسول بذلك، فقد خشي أن يأخذ سعد بن عبادة فرقته من الأنصار بهذه الروح القتالية، ويتساهل في أمر القتال؛ لذلك نزع الراية منه، وأعطاها لابنه قيس بن سعد، في فقهٍ دعويّ؛ إذْ أراد الرسول أن يطيِّب خاطر سعد بن عبادة بحيث لا يؤثر ذلك في نفسيته، وهو زعيم الخزرج، فأعطى الراية لقيس بن سعد بن عبادة، وكان قرارًا في منتهى الحكمة أَرْضَى به كل الأطراف؛ فقد أرضى سعد بن عبادة، وأرضى نفسه

بتنفيذ القرار: ألاّ يقاتل إلا من قاتل، وأرضى أبا سفيان الذي اشتكى إليه هذه الكلمة القاسية عليه، وخاصةً أنه قد أعطى أمانًا لأهل مكة.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية (14)

إيجاد درع عسكري يحقق النكاية بالأعداء متصل عقدياً بالجماعة ومنفصل سياسياً وتنظيمياً

لتحقيق الاستقرار السياسي والحفاظ على العهود والمواثيق وتحقيق الضغط العسكري بنفس الوقت،

رَجَعَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم – من الحديبية إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أبو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أبو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أبو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَّ الْآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم - حِينَ رَآهُ: "لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا"، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أبو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى الله ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي الله مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -: "وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ" (قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : "ويل أمه": كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنىٰ ما فيها من ذم. وقوله: "مِسْعر حرب" أي: مشعل نار الحرب مما فعله من قتل الرجل، وقوله: "لو كان له أحد" أي: ينصره ويعاضده ويناصره، وفيه إشارة إليه بالفرار لئلا يرده إلىٰ المشركين، ورمزٌ إلىٰ من بلغه ذلك من المسلمين المستضعفين في مكة أن يلحقوا به.)، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أبو جَنْدَلِ بن سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأبي بَصِيرٍ فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأبي بَصِيرٍ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - إِلَيْهِمْ

صحيح: أخرجه البخاري (2731، 2732)، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

وبذلك اوجد النبي صلى الله عليه وسلم لدولة المدينة دراعاً عسكرياً يضرب العدو بدون ارتباط تنظيمي أو سياسي ويحقق فيهم الإنهاك مع المحافظة على العهود والمواثيق السياسية وبدون تدخل من دولة المدينة.

وأكثر من أجاد بهذا الأسلوب في هذا العصر هي إيران حيث أوجدت لنفسها مخالب في كثير من الدول تنظيمياً تابعة لدولها وعقيدة تدين بالولاء للولي الفقيه.

بينما كانت الدول السنية من فرط الغباء السياسي أداة لسحق كل حركة جهادية سنية

من القواعد السياسية في السيرة النبوية (15)

استدراج الخصم السياسي المعروف بالمراوغة إلى التحدي المحرج

وَعَن أنس قال سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ بِمَقْدَمِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ فَأَتَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الولدُ إِلَى أبيهِ أَو إِلَى أمه؟ قال: «أَخْبرنِي بهنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوت وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزْعَ الْوَلَدَ وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ» . قَالَ: أشهد أَن لا إله إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ وَإِنَّهُمْ إِنْ يعلمُوا بِإِسْلَامِي من قبل أَن تَسْأَلهُمْ يبهتوني فَجَاءَتِ الْيَهُودُ فَقَالَ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سيدِنا فَقَالَ: «أرأيتم إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟» قَالُوا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا فَانْتَقَصُوهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رسولَ الله رَوَاهُ البُخَارِيّ

وبذلك حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعهم أمام خيار محرج فسقطوا بتناقضهم وكشف زيف مواقفهم المضطرب والمرهون للعصبية والجحود والتكذيب لمن أقروا به سيدا عليهم، بينما كان موقف عبد الله بن سلام موقف المتحري الصادق الذي يبحث عن الحقيقة

من قواعد الفقه السياسي في السيرة النبوية (16)

استغلال الصلات الاجتماعية في تحقيق المكاسب السياسية

جاء في غزوة المريسيع عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَايَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَخْرَجَ الْخُمُسَ مِنْهُ، ثُمَّ قَسَمَهُ بَيْنَ النَّاسِ وَأَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ وَالرَّاجِلَ سَهْمًا، فَوَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ صَفْوَانُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَذِيمَةَ فَقُتِلَ عَنْهَا، فَكَاتَبَهَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى نَفْسِهَا عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ وَكَانَتِ امْرَأَةً حُلْوَةً لَا يَكَادُ يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ فَبَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدِي إِذْ دَخَلَتْ جُوَيْرِيَةُ تَسْأَلُهُ فِي كِتَابَتِهَا ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا حَتَّى كَرِهْتُ دُخُولَهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَرَفْتُ أَنْ سَيَرَى فِيهَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ سَيِّدِ قَوْمِهِ وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ عَلِمْتَ فَوَقَعْتُ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، فَكَاتَبَنِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي فِكَاكِي ، فَقَالَ: " أَوَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ " قَالَتْ: مَا هُوَ ؟ قَالَ: " أُؤَدِّي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ " قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: " فَقَدْ فَعَلْتُ " فَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ فَقَالُوا: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْتَرَقُّونَ ، فَأَعْتَقُوا مَنْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ سَبْيِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَبَلَغَ عِتْقُهُمْ مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ بِتَزَوُّجِهِ إِيَّاهَا ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا وَذَلِكَ مُنْصَرَفَهُ مِنْ غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيعِ أخرجه الحاكم في المستدرك

وكان الهدف من زواج رسول الله من جويرية بنت الحارث الطمع في إسلام قومها، وقد تحقق هذا الهدف السامي، فأعز الله المسلمين بإسلام قومها. وكان للرابطة الاجتماعية التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدور الأكبر في تحقيق المكسب السياسي واستمالة عشيرة بأكملها إلى الدخول في الإسلام..

قواعد في الفقه السياسي من السيرة النبوية (17)

تثبيت القاعدة الصلبة بالتحفيز المعنوي

وتثبيت الأطراف المرنة بالتحفيز المادي

مع الأخذ بعيد الاعتبار حماية القرار السياسي للجماعة أن يصير بيد الأطراف المرنة

تنقسم كل جماعة إلى:

أ- القاعدة الصلبة تتكون من الرعيل المؤسسين الذين يقوم بناء الجماعة عليهم والذين لهم سابقة جهاد وبذل للأنفس والأموال والديار في سبيل إيمانهم بالفكرة الجامعة للتيار فبرتهم المحن وثبتوا على البلاء في حالة الضعف

ب- وهناك الدائرة (الأطراف)المرنة التي تتميز بهشاشة موقفها وعدم رسوخ إيمانها بالفكرة الجامعة للجماعة وما دفعها للانضواء فيها إلا رغبة في مغنم أو رهبة من خوف أو طمعاً بجاه أو حمية لعشيرة أو نفاقاً للجماعة في حال قوتها ممن تأخروا باللاحق ولا يحسمون أمرهم إلا بعد ميول موازين القوة بشكل واضح،

وحتى تحافظ على نسيج الجماعة

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ. قَالَ لَمّا أَعْطَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا، فِي قُرَيْشٍ وَفِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ؟ حَتّى كَثُرَتْ مِنْهُمْ الْقَالَةُ حَتّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقَدْ لَقِيَ وَاَللّهِ رَسُولُ اللّهِ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْك فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْت فِي هَذَا الْفَيْءِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ. قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا أَنَا إلّا مِنْ قَوْمِي. قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَك فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ. قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ. قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدّهُمْ.

فَلَمّا اجْتَمَعُوا لَهُ أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَك هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: مَقَالَة بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيّ فِي أَنْفُسِكُمْ؟

أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا فَهَدَاكُمْ اللّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلّفَ اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا: بَلَى، اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنّ وَأَفْضَلُ. ثُمّ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللّهِ؟ لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنّ وَالْفَضْلُ.

قَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: أَمَا وَاَللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاك، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك. أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدّنْيَا تَأَلّفْت بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا. وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللّهِ إلَى رِحَالِكُمْ؟

فَوَ اَلّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ. اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ. وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ. قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللّهِ قَسْمًا، وَحَظّا. ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَتَفَرّقُوا

أخرجه ابن هشام في سيرته

فقد آثر النبي صلى الله عليه وسلم الطلقاء وحديثوا عهد بالجاهلية بالعطايا والغنائم ليثبتهم على الولاء للجماعة وحرم من لهم السابقة من المهاجرين والأنصار لما يعلمه من ثباتهم على دينهم وولائهم

بينما في صورة أخرى

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ، فَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِطْعَةُ جَرِيدَةٍ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ، قَالَ: لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، صحيح مسلم باب رؤية النبي صلى الله عليه وسلم

فهذا يطلب أن تكن السلطة السياسية بيده ومعه قومه بني حنيفة لو اسلموا

لتضاعف عدد المسلمين أضعافا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعطه ما أراد ولم يؤلف قلبه بذلك لخطورة أن يخرج السلطان السياسي

خارج القاعدة الصلبة حينها يبدأ انتكاس الجماعة نحو القهقرى

قواعد في الفقه السياسي في السيرة النبوية (18)

معالجة المخالفة الصادرة من القاعدة الصلبة بالحزم والعقاب

ومعالجة المخالفة الصادرة من الدائرة المرنة بالتغاضي والتغافل

عندما تصدر المخالفة من أحد أفراد القاعدة الصلبة الحريص على دينه والذي لا يشك بولائه للفكرة والجماعة فلن تزيده العقوبة إلا ارتباطاً بالجماعة وإخلاصا وصدقا مع الفكرة وتصحيح لمسار الكبوة الطارئة على هذا الفرد في حالة عابرة من غلبة الهوى ولن يمحو سابقته في البذل والتضحية في سبيل دينه

بينا لا نأمن على من في دينه رقة وهشاشة في ارتباطه بالفكرة والجماعة أن تحمله العقوبة للخروج من الجماعة والدين إيثار للعافية والسلامة على المغرم والجفاء خصوصا أن الأعداء من الخارجي يقتنص مثل هذه الفرص لتحريض المعاقب على الانشقاق وإقناعه بأنه جنف عليه

وهذا الأصل يتناسب من سنة شرعية جاءت في حديث النبي صلى الله وعليه وسلم (يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ) صححه الألباني في "صحيح الترمذي"

الشاهد

في غزوة تبوك تخلف ثلاثة من الصادقين عن النفير وتخلف ثلاث وثمانين من المنافقين فلم يكن علاج الأمر عند النبي صلى الله عليه وسلم سواء

ويروي كعب بن مالك احد المتخلفين ممن شهد العقبة ولم يتخلف في مشهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا (يتحدث عن عودة النبي صلى اله عليه وسلم من تبوك) حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ. وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ

سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

فَقَالَ لِي مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ فَقُلْتُ بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ فَوَ اللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ قَالُوا نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ فَقُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَ اللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

قَالَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشام مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَعْبٌ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ قَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِنَا فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ قَالَ كَعْبٌ حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ. صحيح البخاري

فنجد أن سلك النبي صلى الله عليه وسلم مع من صدق انه لم يعفو عنهم وقد قبل أعذار المنافقين

وتصور لو أن كتاب ملك غسان جاء لهؤلاء المنافقين وقد عاقبهم رسول الله صلى الله وعليه وسلم فلا يأمن أن يلتحقوا بالكفار إن وجدوا عندهم مواساة ولكن كان موقف كعب بن مالك من كتاب ملك غسان موقف المؤمن الثابت الصادق

ونجد أن

إجراء الأحكام على الظاهر و إيكال السرائر إلى الله -تعالى-، فمع أنه -صلى الله عليه وسلم- يعلم كذب المنافقين إلا أنه قَبِلَ منهم علانيتهم ووكل السرائر إلى الله -عز وجل-، لأننا لم نؤمر أن نشق عن صدور الناس، والله أعلم. ولو أراد أن ينقب لكان بناء مسجد الضرر قرينة قوية على عمالتهم لمن حارب الله ورسوله من قبل، ولكن ضرورة الحفاظ على تماسك بناء الدولة يقتضي عدم الضغط على من يشك بولائهم حتى لا يحملهم الضغط للإيغال في العداوة والعمالة والالتحاق بالكفار

من قواعد الفقه السياسي في السيرة النبوية (19)

في الخطاب السياسي

الجمع بين الحكمة والعزة والحزم والترغيب والترهيب والقاسم المشترك في الخطاب السياسي

رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل

جاءت رسالة الرسول في صحيح البخاري، وهناك كثير من الناس من الممكن أن تستغرب كلام هذه الرسالة، فنحن نعلم أن هذه الرسالة هي من رئيس دولة صغيرة جديدة وهي دولة المدينة المنورة، وجيشها على أكبر تقدير ثلاثة آلاف جندي، وعمرها لا يتجاوز الثلاث سنوات وأسلحتها بسيطة، وعَلاقاتها في العالم محدودة جدًّا، ومع ذلك يُر

سِل زعيمها رسالة إلى هرقل قيصر الروم، الزعيم الأعظم للدولة الأولى في العالم الإمبراطورية الرومانية التي تسيطر على نصف أوربا الشرقي، إضافةً إلى تركيا والشام بكامله، ومصر والشمال الإفريقي، وجيوشها تقدر بالملايين بلا

مبالغة، والأسلحة متطورة جدًّا، وتاريخها في الأرض أكثر من ألف سنة، لا بد أن ندرك كل هذا ونحن نقرأ كتاب الرسول إلى قيصر الروم: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَسْلِمْ تَسْلَمْ".

هكذا في منتهى الوضوح: أسلم تسلم."يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[1]"[2].

ثم كتب آية من آيات رب العالمين: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64].

ونحن نرى الوضوح والقوة والعزة والحكمة في كل كلمة من كلمات الخطاب. وهذا الخطاب يحتاج إلى وقت طويل حتى نحلله، وندرسه، ونستخرج منه الدروس التي في باطنه، ولكن هنا سوف نشير إلى بعض الدروس المهمة.

- فقد حرص الرسول على ظهور عزته وعزة الدولة الإسلامية في كل كلمة من كلمات الخطاب؛ أولاً: بدأ باسمه قبل اسم هرقل. وهذا الكلام كان خطيرًا في زمانهم، فقد كتب: "من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم"، ثم دعاه مباشرة للدخول في الإسلام، فقال: "أسلم تسلم". في صيغة ليس فيها تردُّد.

- وأيضًا من الدروس أنه مع إظهار هذه العزة والقوة إلا أنه لم يقلل من قيمة الطرف الآخر، بالعكس رفع قدر الطرف الآخر وحفظ له مكانته قال: "إلى هرقل عظيم الروم". وأيضًا جمع في مهارة عجيبة بين الترهيب والترغيب يقول له: "أسلم يؤتك الله أجرك مرتين". يعني فيها نوعٌ من الترغيب، ثم يقول له مهدِّدًا بوضوح: "فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين". ونحن نراه يجمع بين الترغيب والترهيب، فهو في ناحية يرغِّب، وفي ناحية أخرى يرهب، وهذا الكلام في سطور قليلة للغاية.- وأيضًا من الدروس من هذه الرسائل حسن اختيار الآية المناسبة من القرآن الكريم، فقد أتى بآية تقرب قلوب أهل الكتاب، وتوضح أن هناك قواسم مشتركة كثيرة بيننا وبينهم، حتى يفتح عقولهم للتفكير، ويرفع حواجز كثيرة جدًّا بين الطائفتين المسلمة والنصرانية. بينما لا نجد أنه كتب هذه الآية في رسالته لكسرى

هذا كان خطاب هرقل عظيم الروم، وهكذا كان الخطاب إلى كل زعماء العالم، الخطاب متشابه في مضمونه مع اختلاف الألفاظ على حسب البلد المرسَل إليها، واختلاف الدين الذي يدينون به. ومع وحدة الخطاب إلا أن ردود الأفعال كانت متباينة، فقد بلغ بعضها القمة في الأدب وحسن الردّ، في حين بلغت بعض الردود الأخرى أدنى مستوى لسوء الأدب والمعاداة، وبعضها بين هذا وذاك.

من قواعد الفقه السياسي في السيرة النبوية (20)

الأسئلة العشرة لاكتشاف الصفات العشرة في الجماعة

والتي تحدد قوتها وتمكينها

حوار بين أبي سفيان وهرقل

سمع هرقل أن هناك نبيًّا ظهر في بلاد العرب، فأمر هرقل جنوده أن يأتوا ببعض العرب؛ لكي يسألهم عن هذا النبي الذي ظهر في بلادهم. واستطاع الجنود الإمساك ببعض التجار الذين كانوا يتاجرون في غزة بفلسطين، وكان هرقل في بيت المقدس في ذلك الوقت، وهو يريد أن يستوثق من أمر الرسول ، وكان من بين هؤلاء التجار أبو سفيان بن حرب زعيم قريش. وهذا الأمر حدث بعد صلح الحديبية مباشرة؛ فقد سافر أبو سفيان لغزة للتجارة، وأمسكه بعض الجنود، وأخذوه إلى هرقل في بيت المقدس، والتوقيت عجيب من كل النواحي، فكأن الله أرسل أبا سفيان الذي كان كافرًا في ذلك الوقت؛ ليقيم الحجة على هرقل في هذا اللقاء العجيب.

ورد في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، نقلاً عن أبي سفيان بعد إسلامه، أن هرقل سأل التجار أيكم أقرب نسبًا لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان: "أنا أقربهم نسبًا إليه".

فقال هرقل: "أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره". أي جعل أبا سفيان واقفًا ووراءه مجموعة من أصحابه، ثم قال لترجمانه: "قل لهم: إني سائلٌ هذا الرجل -يعني أبا سفيان- فإن كذبني فكذبوه".

هرقل يريد أن يعرف بجدية كل شيء عن هذا النبي، فسأل أقرب الناس إليه نسبًا؛ ليكون على معرفة تامة به، وفي الوقت نفسه جعل وراء أبي سفيان مجموعة التجار الآخرين كحكّام على صدقه. وتحت تأثير إرهاب هرقل وبطشه، أبو سفيان سوف يخاف أن يكذب، ومَن وراءه سوف يخافون أن يكذبوا. ولكن أقول لكم: إن عامل الكذب هذا لم يكن واردًا في القصة، فالعرب حتى في أيام الجاهلية كانت تستنكر صفة الكذب هذه، وتعتبرها نوعًا من الضعف غير المقبول، حتى إن أبا سفيان كان يقول تعليقًا على كلمة هرقل هذه: "فو الله لولا الحياء من أن يؤثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني فصدقته".

فهو في هذه اللحظة -سبحان الله- مع أنه يكره الرسول كراهية شديدة، إلا أنه لا يستطيع أن يكذب على محمد ، لا يحب أن يشوّه صورته بالكذب، لدرجة أنه في رواية كان يقول: "ولكني كنت امرأً أتكرَّم عن الكذب".

وبدأ استجواب هرقل لأبي سفيان أمام الجميع من العرب والرومان وفي حضور عِلية القوم من الأمراء والوزراء والعلماء من الرومان. وفي هذا الاستجواب سوف نرى أن هرقل سيسأله أسئلة يحاول بها أن يتيقن من أمر هذه النبوة التي ظهرت في بلاد العرب، هل هي نبوة حقيقية أم كذب؟ وهذه الأسئلة عبارة عن استنباطات عقلية، وهذه الأسئلة بناء على معلومات عن الأنبياء بصفة عامة، وعن هذا النبي بصفة خاصة كما جاء في التوراة والإنجيل. وهذا الحوار الذي دار بين هرقل زعيم أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت وأبي سفيان زعيم قريش، نحن نحسبه من أعجب الحوارات في التاريخ، وهو عجيب من أكثر من وجه؛ لاهتمام زعيم أكبر دولة في العالم بأمر رجل يظهر في صحراء العرب، أو من حيث ذكاء الأسئلة ودقتها، أو من حيث ردود أبي سفيان المشرك -آنذاك- الذي كان يكره محمدًا كراهية شديدة، أو من حيث تعليق هرقل على كلام أبي سفيان في آخر كلامه، أو من حيث ردّ فعل هرقل بعدما سمع كلمات أبي سفيان. إنه حوار عجيب بكل المقاييس، وقد بدأ الحوار بسؤال:

كيف نسبه فيكم ؟قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

قال هرقل: فهل قال هذا القول من قبلكم أحد قَطُّ قبله؟ قال أبو سفيان: لا، لم يدَّعِ أحدٌ في تاريخ العرب النبوة.

فقال هرقل: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فقال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

قال هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟ قال أبو سفيان: بل يزيدون.

قال هرقل: فهل يرتد أحد منهم سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال أبو سفيان: لا، لا يرتد منهم أحد.

قال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: فهل يغدر؟ قال أبو سفيان: لا. ثم قال: ونحن منه في مدةٍ لا ندري ما هو فاعل فيها

هذا كلام أبي سفيان، فهو أراد أن يقول أي شيء سلبي على الرسول ، فكل الإجابات ترفعُ من شأن الرسول، يقول أبو سفيان: ولم تُمْكِنِّي كلمةٌ أُدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

أي حاولتُ قدر ما أستطيع أن أطعن في الرسول بأي شيء، فلم أستطع إلا بهذه الكلمة، وهرقل لم يعلِّق على هذه الكلمة، وكأنه لم يسمعها.

ثم قال هرقل: فهل قاتلتموه؟ قال أبو سفيان: نعم.

فقال هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال.

قال هرقل: بماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

انتهى الاستجواب الطويل من هرقل، وبدأ هرقل يحلل كل كلمة سمعها، وكل معلومة حصل عليها حتى يخرج باستنتاج. وأعلن ذلك الاستنتاج ترجمان هرقل، قال هرقل:

"سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها". وسوف يبدأ هرقل يأخذ كل كلمة، وكل نقطة يثبت بها لأبي سفيان وللجميع ولنفسه قبلهم أن هذا رسول من عند الله.

ثم قال: سألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا، قلتُ: لو كان قال أحد هذا القول قبله لقلت رجل يَأْتَسِي بقول قيلَ قبله

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من مَلِك، قلتُ: رجلٌ يطلب مُلك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فَقَدْ عَرَفْتُ أنه لم يكن ليذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فهذه هي تحليلات هرقل حتى خرج إلينا في نهاية الأمر بنتيجة خطيرة فعلاً، يقول بمنتهى الصراحة: فإن كان ما تقوله حق فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلمُ أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلصُ إليه لتجشَّمْتُ لقاءَهُ، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قَدَمِهِ. البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي

إنها كلمات خطيرة وعجيبة من زعيم الإمبراطورية الرومانية، فقد أيقن هرقل من أول وهلة أن هذا الرجل رسول حقًّا، وأن ملكه سيتسع حتى يأخذ بلاد الشام، وأنه يجب الإتباع له والانصياع الكامل لأمره، بل الرضوخ لقوله تمامًا، والتواضع الشديد لدرجة أن هرقل يتمنى أن لو غسل قدمي رسول الله . ودعا هرقل بكتاب

الرسول والمرسَل مع دِحْية بن خليفة الكلبي، وقرأ هذا الكتاب في وجود أبي سفيان، ونحن لا نعلم إن كانت هذه أول مرة يقرأ هرقل الرسالة، أم قرأها قبل ذلك، وقد يكون هرقل قرأ رسالة النبي قبل ذلك، ثم أراد أن يَعْرف أكثر عن هذا النبي، فبحث عمن يَعْرفه جيدًا؛ ليسأله عنه وعن سيرته وأخلاقه كما رأينا. ولعله أراد أيضًا أن يُعَرِّف أساقفة الرومان وقادتها بهذا النبي الذي يريد أن يؤمن به هو شخصيًّا، وقد رأينا أسئلته لأبي سفيان وتحليلاته الشخصية لأجوبة أبي سفيان عنها، تلك التحليلات التي تنطق بأن هذا الرجل هو النبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

دراسات الغرب وأمريكا عن الإسلام تتم بكثير من الشفافية والموضوعية كونها تخدم على وضع الخطط والاستراتيجيات باتجاه عالمنا، ومن ثم لا يصلح الكذب أو التهوين أو التضخيم للظواهر والمظاهر والمكونات والمقومات حتى تكون النتائج حقيقية ، كمعالم في وضع سياسات بعينها تنزع فتيل الفاعلية والتأثير عن هذه الأمة، وبالتالي إضعافها من الداخل وتفريقها ما أمكن وبكل الطرق والأدوات .

من هنا تصبح القراءة في تلك البحوث والدراسات واجبة، مع الأخذ في الاعتبار أن بعضها يكون موجها للتضليل والتدليس على الأمة؛ استغلالا لحالة الثقة بها وتوظيفا لتلك الثقة التي لا ينفك عنها مجتمع تابع لمن يفوقه حضاريا ولو في المظاهر المادية.

الاستغراب علم يبرز في سماء عالمنا كمحاولة لفهم الغرب والتعرف عليه لإفادة من طبائعه وحقائقه عقليا ونفسيا.

غير أنه لا يتوجه باهتمامه نحو ما وصل إليه الغرب من نتائج تتصل بعالمنا من كل الزوايا؛ لتحديد جوهر استراتيجياته وأبعاد مخططاته.

كثيرة هي تلك التقارير التي تعتمدها السياسة الغربية والأمريكية والتي تقدمها مراكز البحث كخدمة لصناع القرار حيال الشرق الأوسط، الخبرة وسبر غور تلك الدراسات يوقفنا ـ كما تفضلت ـ على الذات بشكل أعمق وأكثر شمولا ..

وعلينا تتبعها بالتخصص فيها دون خلط بينها وبين تلك التي للتعمية وتمرير سياسات قذرة بحقنا ..

يجب على الجماعة أن تحرص كل الحرص أن تعرف صفاتها وتوصيفها من دراسة أعدائها لها خصوصا ممن يتحرون الصدق والحق وأن تعرف كيف أنت في عيون الآخرين

من قواعد الفقه السياسي من السيرة النبوية (21)

صناعة القرار السياسي الفاعل

لم تعد صناعة القرار السياسي الذي يرتبط به مصير الجماعة والدولة تحتمل التفرد والارتجالية والحماس أو الأحجام والقصور

ولا بد للقائد الذي يتخذ قرار استراتيجي من دراسة هذا القرار بشكل جيد لضمان الفاعلية الكاملة

1- ثقة الجماعة بالقيادة

2- مشاركة الجماعة في صياغته لتحقيق الحماس والالتزام الذاتي عند التنفيذ عن طريق الشورى

3- صوابية القرار

4- تهيئة القواعد لتقبل القرار

5- اختبار قدرات الجماعة

لم يفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب والمواجهة على الأنصار يوم بدر وما قرر الحرب إلا بعد موافقتهم، واستشارتهم فجعل من قرار المواجهة خياراً عاماً اشتركت الجماعة في صياغته، وهذا يستدعي الجماعة أن تتحمل مسؤوليتها كاملة أمام النتائج.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشيروا علي أيها الناس وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع

منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشطه ذلك. ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. سيرة ابن هشام، (2 / 188).

مصادرة قرار الأمة سيجعل القرار فاقداً للتأييد الشعبي منفصلاً عن قواعده، وقد ينظر إليه على أنه نوع من الافتئات، فما بال البعض يريد أن يزج الأمة في محاربة العالم ودون أن توكله الأمة بقرارها؟!

هنا لا بد للقيادات أن تحذر من الخطوات المتسارعة والقرارت المفاجئة التي لم تتهيأ القواعد لتقبلها، ولا تغتر بأصحاب السقوف العالية فأن السير على سير الأقوى يؤدي إلى تساقط الأفراد في طريق الدعوة والجهاد حال نفاد الطاقة، لأنه من المسلم به بداهة تفاوت البشر بالقوة والتحمل؛ وهذا التفاوت وُجِد حتى بين الأنبياء فأولو العزم من الرسل ليسوا كغيرهم من الأنبياء.

والسير على سير الأضعف قد يؤدي إلى تأخر الحصاد، ولكنه يحافظ على تماسك الجماعة؛ وذلك برفع همة المبطئين وكبح جماح المتسرعين؛ فتلتقي الجماعة عند نقطة وسط.

هنا لا بد من التمييز بين الضعف والوهن نراعي حالة الضعف ولا ننساق بالتنازل لإرضاء الواهنين. فالمحافظة على تماسك الجماعة مع تأخر الوصول والحصاد خير من تفتيت الجماعة مع سرعة الوصول ولن يكون هناك حصاد، كما أن

تخفيف الصلاة مع تكثير الجماعة أولى من إطالة الصلاة مع افتتان بعض المصلين بترك الجماعة.

لذلك كان التوجيه النبوي للأمة أن تسير على سير الأضعف، وكانت التوجيهات النبوية في هذا المضمار صارمة واضحة؛ فلا ينبغي للأمير أن يحمل الأمة على العزيمة كرهاً وإن أخذ بها في خاصة نفسه.

حتى في قضية الجهاد ذروة سنام الإسلام كان يتخلف عن الغزوة شفقة بأمته، قال صلى الله عليه وسلم:

(لولا أنْ أشقَّ على المسلِمينَ؛ ما قعدتُ خلافَ سَرِيَّة تغزُو في سبيلِ اللهِ أبداً؛ ولكنِّي لا أجدُ سَعَة فيتبعُوني، ولا تطيبُ أنفُسُهم فيتخلفونَ بعْدي.) أخرجه البخاري (36)، ومسلم (33/6)، وأبو عوانة (24/5)، والبيهقي (157/9)، وأحمد (2/ 231 و 384)

والمتتبع لكثير من أحاديث السنة يجد امتناع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كثير من الأعمال التي يحبها لكنه يمتنع خشية أن تفرض على أمته، كما أمتنع عن الخروج للتراويح مخافة أن تفرض على أمته فيشق الأمر عليهم.

مشكلة بعض الجماعات الإسلامية يبطلون الاستدلال بالسيرة النبوية وبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو تشابهت الحالة ضعفاً ومكنة، بناء على أن ما فعل في السيرة حال الاستضعاف وقع لما كانت الشريعة لم تكتمل أما وقد اكتملت شريعة الله تعالى فلا يجوز ذلك بحال.

بل إن منهم من يبطل كل العمل السياسي بآية السيف ويضع الأمة أمام خيارٍ أُحادي لا يقبل التعدد، وهذا خطأ بيِن لأننا لا نقول بأن التزام الجماعات الإسلامية بمراحل السيرة النبوية وإسقاط مراحلها على عمل الجماعة هي مسألة توقيفية. وإنما نقول أن ارتباط التكليف بالقدرة حكم ثابت لا يلغيه اكتمال الشريعة بل هو من كمال الشريعة وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في السيرة من الترخص وترك العزيمة هو من هذا الباب، وكثير من الأحاديث الصحيحة التي تبدأ (لولا أن أشق على أمتي)

وجدنا من يحمل الأمة على العزيمة في زمن الاستضعاف بطريقة التلبيس في توصيف الحالة عن طريق ضخ ثقافة معينة لا تتحملها الساحة بل تتطلب غيرها تماماً. كمن يُدَرِسُونَ أحكام جهاد الطلب في ساحةٍ الجهادُ فيها جهاد الدفع لسبب وحيد أنهم لا يعرفون الجهاد إلا فرعاً عن التكفير.

بعض التيارات الإسلامية تُعرض عن الرخصة إلى العزيمة لا لقناعتها وليس ورعاً؛ وإنما بسبب دخول ماراتون من المزايدات مع الجماعات الأخرى التي تنتظر منها هكذا خطوة لتقلب مزاج الأتباع على قادتها وكسب أتباع جدد، من خلال المتاجرة وتصوير الرخصة بالخيانة وكذلك التزي بأردية الزور والتشبع بالمفقود لدغدغة عواطف الأتباع الذين يطربون لهذا النوع من الخطابات والشعارات.

فقد عرفنا كثيراً من القادة أعرضوا عن إصلاحات وترددوا في قرارات مصيرية وتركوا أمر رشدٍ خوفاً من خسارة بعض الأتباع السفهاء الذين قد يفسرون الرخصة طعناً في الدين وخيانة لله ورسوله، حتى غدت خشية القادة من الأتباع أكثر من خشية الأتباع للقادة حرصاً على عدم تخلخل الجماعة.

فالأصل أن يكون السير في العمل الحركي على سير الأضعف مراعاة للقدرة وضعف الأفراد ولكن بعض الحركات الإسلامية جعلت السير على سير الأجهل حتى لا يخسره التنظيم بل يكون الأمر بان يأخذ القوي بيد الضعيف كالماشي مع العاجز ليعينه على لطريق فان تركه بنصف الطريق هلك وان جلس معه هلكوا جميعا فيتراجع القوي خطوة ويخفف من سرعته ويشد الضعيف خطوة ويرفع من همته حتى ينتظم سير القافلة هكذا موازنتها الصحيحة

وهكذا نجد قيادات التيار الإسلامي تخرج في رسم سياستها من دوائر السياسة الشرعية إلى التقيد بمزاج القوى النافذة داخل تياراتها وهكذا تهدر مصالح الأمة في سبيل الحفاظ على الفصيل، فتعيش القيادة حالة من الحجر على التصرفات والقرارات الشرعية في مؤداها من خلال إحاطتها بمجالس شورى صورية ليس مهمتها تقديم الشورى بقدر ما تكون مهمتها ممارسة الحجر على القيادة وتعطيل القرارات المصيرية، والسبب نوع التغذية التربوية التي نما عليها هؤلاء ضمن القوالب الجامدة؛ والتي يبوء بإثمها موجهون أساؤوا التربية بالتثقيف الأحادي

الذي يراعي الحالة العسكرية الجهادية فقط، فلما وصلوا إلى مرحلة القطاف السياسي للجهد العسكري وجدوا القاعدة غير مهيأة للانتقال إلى الجهاد السياسي أو حتى أن تقبل رؤية قياداتها تخوض غمارها بسبب فقد التوازن في التوجيه والإعداد، فالنظرة إلى العمل السياسي عند أبناء التيار نظرة مفعمة بالتخوين وسوء الظن، وهذا بسبب ضعف التدبر للسيرة النبوية.

نجد في الحديبية الأيادي التي امتدت لصلح الحديبية كاستحقاق سياسي هي نفس الأيادي التي امتدت لبيعة الموت تحت الشجرة قبلها، فالتربية الجهادية والسياسية تسير سواء بسواء. أما اليوم فنحن العرب خاصة و المسلمون عامة لا نحسن الحرب ولا نحسن السياسة نحارب بعاطفة فنعلن الحرب على العالم ونمارس السياسة بعاطفة فنسرف بالتنازلات

(والحكمة أن تسوس الحرب وتحارب في السياسة)

كان هناك من يرى القرار السياسي للقيادة النبوية إعطاء للدنية ولكن الأغلبية كانت على ثقة بكل ما يصدر عن قيادتها، رغم الشروط التي كان يراها البعض مجحفة بحق المسلمين، ولكن ما لم يفطن له الكثير أن أعظم نصر للمسلمين في الحديبية هو حصول المسلمين على اعتراف بهم ككيان ودولة تبرم المعاهدات، وهذا من أهم العوامل لقيام الدولة مما لا يفطن له أبناء التيار الإسلامي الذين يبحثون عن شكل دولة دون اعتراف من المجتمع الدولي بها.

زمن الأمثلة على دعم قرارات القيادة وأهمية عامل الثقة في قضية تحول القبلة:

لقد كان تغيير القبلة أمراً عظيماً على قلوب أصحاب رسول الله، وكانت الحكمة ليعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، ولكن لما كانت التربية الإيمانية لأصحاب رسول الله راسخة وثقتهم بدينهم ورسولهم كان التسليم المطلق، حتى إنهم غيروا اتجاههم بعد ركعتين من صلاة رباعية بأثناء الصلاة وسمي المسجد مسجد القبلتين.

قال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ }(143) البقرة

في الآية ملحظ لطيف وهو: تقدير الجهد السابق للجماعة له أثره في ارتضاء الأمر اللاحق، هذا لما كانت الجماعة على حالٍ واحد من الإيمان والتسليم، ولكن بعد الفتح مجرد تصحيح القبلة لم تُقدِم عليه القيادة النبوية لعدم الثقة بمسلمة الفتح حديثي العهد بالجاهلية، ثم إن تصحيح القبلة ليس مكسباً استراتيجياً حتى يشوش الناس من أجله؛ فتركه كان عين السياسة الرشيدة، أما تحويل القبلة فكان خطوة لا بد منها لتحقيق المفاصلة في الهوية مع أهل الكتاب والاستقلال بقبلة خاصة بالمسلمين.

من الفقه السياسي في السيرة النبوية الجزء الثاني (22)

القيادة الميدانية والقيادة عن بعد

كثيراً ما يطرح سؤال أيهما أفضل القيادة المنهمكة بالعمل الميداني عن كثب أم القيادة التي تدير الدفة عن بعد وتكتفي بالإرشادات العامة

والحقيقة أن الأمر عائد إلى المصلحة والفاعلية التي تحققها كل من الطريقتين

أ- ففي الوقت الذي تشح فيه الكوادر ويمكن أن تتعرض الجماعة للفراغ القيادي يجدر بها أن تحافظ على قيادتها لما لذلك من أثر في تخلخل الجماعة حال فقد القائد الضرورة وقد رأينا كثير من الجماعات دفعت قياداتها إلى الواجهة فلما فقدوهم صاروا على ذلك من النادمين

وفي السيرة النبوية كانت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم للمعركة من العريش دون الاشتراك بالقتال وقد حرص الصحابة على

حماية القائد و تأمين مقر القيادة:

فقد قال القائد الإسلامي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ – مبينًا أهمية تأمين سلامة القائد والقيادة- : " يَا نَبِيّ اللّهِ، أَلا نَبْنِي لَك عَرِيشًا [من جريد] تَكُونُ فِيهِ نُعِدّ عِنْدَك رَكَائِبَك [أو رواحلك]، ثُمّ نَلْقَى عَدُوّنَا، فَإِنْ أَعَزّنَا اللّهُ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوّنَا، كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى، جَلَسَتْ عَلَى رَكَائِبِك، فَلَحِقَتْ بِمَنْ وَرَاءَنَا، فَقَدْ تَخَلّفَ عَنْك

أَقْوَامٌ - يَا نَبِيّ اللّهِ - مَا نَحْنُ بِأَشَدّ لَك حُبّا مِنْهُمْ! وَلَوْ ظَنّوا أَنّك تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلّفُوا عَنْك، يَمْنَعُك اللّهُ بِهِمْ يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَك"[السهيلي 3 / 63] .

فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

وقال مبشرًا: "أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد!" [الواقدي 17/1]

ثُمّ بُنِيَ لِرَسُولِ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - عَرِيشًا على تل مرتفع يشرف على ساحة القتال استجابة لمطلب سعد – رضي الله عنه -.

وكان فيه أبو بكر، ما معهما غيرهما [ابن الأثير: أسد الغابة 2 / 143] .

كما تم انتخاب فرقة من جنود الأنصار بقيادة سعد بن معاذ لحراسة مقر قيادة حضرة النبي- صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ [انظر: ابن هشام 233/2].

ب- أما في الحالة التي يكتمل فيها بنيان الجماعة وتغتني بالكوادر وتضعف همة البعض عن العمال بسبب غياب القيادة فيحسن أن تكون القيادة ميدانية وربما في الخط الأول لتحميس الهمم القاصرة

روى مسلم (1776) عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال:" كنا إذا اشتدَّ البأسُ، وحميَ الوطيس، استقبلنا القوم بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الشُّجاع منا ليُحاذي الذي يحاذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح، عن العباس رضي الله تعالى عنه قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً، قال: فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وما معه إلا أنا وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، فلزمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نفارقه، وهو على بغلة شهباء، أهداها له فروة بن نعامة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار. قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها، وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين، وأبو سفيان بن الحرث آخذ بغرزِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عباس ناديا أصحاب السمُرة. قال: وكنتُ رجلاً صيتاً، فقلتُ بأعلى صوتي: أين أصحاب السمُرة. قال: فو الله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي

عطفة البقَر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، وأقبل المسلمون فاقتتلوا هم والكفار، فنادَت الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الداعون على بني الحرث بن الخزرج، فنادوا يا بني الحرث بن الخزرج. قال: فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا حين حميَ الوطيس

وبذلك ندرك متى يجب أن تكون القيادة ميدانية ومتى يحسن أن نحافظ على القيادات ولا نسترخص بها في المهالك

وان الأمر لا يخضع للعواطف والمزايدات

من قواعد الفقه السياسي في السيرة النبوية (23)

الجمع بين ثبات المبادئ ومرونة الوسائل في وقت القوة والضعف

يظن البعض أن مرحلة الضعف تقتضي المرونة بإطلاق مع الكافرين والأخذ بالرخص هو الأصل ولا ينبغي للجماعة المستضعفة أن تأخذ مواقف صلبة وهذا الكلام ليس على إطلاقه فقد وجدنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام في العهد المكي مواقف صلبة كالجبال الراسية وموقف مرنة كل ذلك ضمن فقه سياسي ومعرفة بالأولويات ودراسة الموقف المناسب لفقه المرحلة فهو ثبات بلا تحجر ولين بلا تميع

فقد ظلَّ رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مكة يدعو الناس إلى (لا إله إلا الله) وإلى عبادة الله، ويحذرهم من الشرك بالله ومن عبادة الأوثان، سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، ومنذ بداية الدعوة الإسلامية والمشركون يسعون للحيلولة دون وصولها إلى الناس بأساليب مختلفة، منها: السخرية والاضطهاد والإيذاء، ومع ذلك فالناس يدخلون في دين الله، ويتبعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: (سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟، قال: بينا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي في حِجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟) رواه البخاري.

وبعد أن فشل كفار قريش في محاربة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصد عن دين الله بهذا الأسلوب، انتقلوا إلى أسلوب آخر، ألا وهو أسلوب الإغراءات والمساومات، وطلب المعجزات للتحدي والإعجاز، لكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ثابتاً أمام هذه التحديات، فلم يفتر ولم يركن إليهم، حتى انتشر نور الإسلام في أرجاء الأرض كلها، قال الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}(التوبة:32) .

ترغيب وإغراء:

ظن كفار مكة أن الأنبياء يريدون بدعوتهم الدنيا والمناصب، أو الزعامة والرئاسة، ولذلك تقدموا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه المحاولة، وهي إغراؤه بالمال والملك، والرئاسة والسيادة، ولكنهم فشلوا في ذلك.

ذكر ابن هشام في سيرته عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: (أرسَلَتْ قريشٌ عُتْبَةَ بنَ ربيعةَ ـ وهو رجلٌ رَزِينٌ هادىءٌ ـ فذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمتَ من المكان في النسب، وقد أَتَيْتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ فَرَّقْتَ به جماعتهم، فاسمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عليك أمورا لعلك تقبل بعضها، إن كنتَ إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنتَ تريدُ شَرَفا سَوَّدْناكَ علينا، فلا نقطع أمرا دونك، وإن كنتَ تريدُ مُلْكًا مَلَّكْناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئْيًا (مس من الجن) تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطِّبَّ، وبَذلنا فيه أموالَنا حتى تبْرَأَ .. فلما فرَغَ قولُه تلا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صَدْرَ سورة فُصِّلَتْ : {حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ }(فصلت: 1: 7)، حتى وصل إلى قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}(فصلت: 13) .

إن الإغراءات والمساومات التي عرضتها قريش على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورفضها، جاءت لتقطع السبيل إلى كل ظن وتشكيك بمقصده ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قيامه بالدعوة، ومع هذا، فقد بقي البعض ممن احترف الغزو الفكري يؤثر القول بأن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت له دوافع سياسية، وكانت له رغبة في السيادة والملك، وممن قال هذا القول من المستشرقين كريمر الألماني وفان فلوتن الهولندي.

والرد عليهم واضح جلي، من خلال جواب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عُتبة في رواية أخرى لابن هشام وابن كثير بقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: (ما جِئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليَّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا وفي الآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم).

لكم دينكم ولي دين:

انتقل كفار مكة إلى محاولة ثانية وهي ما يسمى بلغة العصر "تقارب الأديان"، ففكرة التقارب بين الأديان ليست بدعة عصرية، وإنما هي قديمة أول من دعى إليها كفار مكة، عندما قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح قال: وما هي؟، قالوا: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة.

عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : (إن قريشاً وعدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه (أي: يسوده) فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمَّد! وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح، قال: وما هي؟، قالوا: تعبد آلهتنا سنة: اللات والعزى، ونعبد إلهك سنة! فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: حتى أنظر ما يأتي من عند ربي، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ : { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}(الكافرون: 1 : 6)، وأنزل الله ـ عز وجل ـ : {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي

أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(الزمر: 64: 66)) رواه الطبراني .

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون:6): ليس هذا من باب الإقرار، وإنما هو من باب المفاصلة والتحذير، قال الإمام البخاري: " لكم دينكم الكفر، ولي دين الإسلام "، وهو مثل قوله تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} (يونس:41) .

وقد بين هذا الموقف من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن طريق الحق واحد لاعوج فيه، إنه توحيد الله، فلا لقاء بين الكفر والإيمان، فالاختلاف جوهري، يستحيل معه التنازل عن شيء من الحق لإرضاء الباطل وأهله، فالكفر كفر، والإيمان إيمان، والفارق بينهما بعيد، والسبيل الوحيد للالتقاء هو الخروج من الكفر إلى الإسلام، وإلا فهي البراءة التامة، والمفاصلة الكاملة، بين الإيمان والكفر: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون:6) .

الثبات: الصراع بين الإسلام والكفر، والحق والباطل، قصته واحدة، وإنِ اختلفت صوره وأساليبه بحسب الزمان والمكان، ومن أهم سمات التربية في المرحلة المكية الثبات على الدين،مع مرونة الوسائل ولا شك أن موقف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الراسخ أمام الإيذاء، والإغراء، والمساومة، كان درسا تربويا للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ولنا من بعدهم، نتعلم منه الثبات على العقيدة، والتمسك بالمبادئ، مهما أوذينا بقول أو فعل، وعدم الضعف أمام المحن، ونحن في حالة المحنة والضعف أو التفكير في المغريات التي تعرض علينا لصرفنا عن ديننا ودعوتنا..

ثم إن الثبات على الدين والحق نعمة من نعم الله، قال الله تعالى: {وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} (الإسراء:74)، ولذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر من الدعاء بقوله: (يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك) رواه أحمد .

والثبات في أيام الفتن ووقت المحن والبلاء له أجره الكبير وفضله العظيم، ولذلك بشّر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثابت على دينه بأجر خمسين من

الصحابة، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قالوا: يا نبيَّ الله أو منهم ؟، قال: بل منْكم) رواه الترمذي .

وكذلك نجد في المقابل مواقف مرنة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم في وسائل الدعوة وما لا يخدش في العقيدة والثوابت.

رسول الله يستفيد من قانون الإجارة في مكة ويتحرك ضمن الأعراف الجاهلية لصالح الدعوة.

لم يكن أمام رسول الله بدٌّ من دخول مكة مرة أخرى، خاصة بعد ما لقيه من سفهاء الطائف، ومع أنه كان مطلوب الرأس من قبل الأجهزة الأمنية المكية، إلا أن رسول الله كان واقعيًّا لأبعد درجة، لقد قرر أن يدخل في إجارة رجل من أهل مكة، وقانون الإجارة قانون محترم في مكة، نعم، يقوم على تطبيقه مشركون، لكن رسول الله يستفيد من قوانين المجتمع المشرك طالما لا تتعارض مع شرع الله، وطالما لا يقدم تنازلاً من دينه أو عقيدته في نظير الاستفادة من هذا القانون، درس في غاية الأهمية.

قانون الإجارة لقد قرر رسول الله أن يدخل مكة في إجارة مشرك، ولم تأخذه الأنفة أن يتعامل مع مشرك ويدخل في حمايته، لقد كان واقعيًّا لأبعد الحدود، لو أن رسول الله دخل في إجارة مؤمن لكان ذلك بمنزلة إعلان الحرب في مكة، وسيتميز أهل مكة إلى فريقين: مؤمن وكافر، وهذا ليس وقت المواجهة، ولا بد من ضبط النفس حتى يأتي أمر الله.

وفي الوقت نفسه هو لا يجد في بني هاشم -على عظمها- من يجيره؛ فكبير بني هاشم بعد موت أبي طالب هو أبو لهب، وأبو لهب من أشد الأعداء لهذه الرسالة، ولن يقبل أن يقوم بحماية رسول الله ليبلغ رسالة هو كاره لها، ولن يستطيع أحد من رجال بني هاشم أن يتعدى على أبي لهب في هذا الأمر.

لذلك لم يتردد رسول الله في أن يراسل رجالاً من المشركين يطلب إجارتهم له، فراسل في البداية الأخنس بن شريق فلم يكن عنده نخوة، وتعلل بأنه حليف (أي ليس أصيلاً في مكة) والحليف لا يجير، فراسل سهيل بن عمرو وهو من عظماء

مكة، وكان من المتوقع منه أن يقبل الإجارة وكان رجلاً عاقلاً، ولكن سبحان الله! تخلى سهيل عن عقله ومروءته وقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب. وطبعًا رسول الله يعلم أن هذه القوانين ليست حتمية، وإنه من الممكن أن يجير الحليف، ومن الممكن أن تجير بنو عامر على بني كعب، وإلاَّ لما أرسل إليهما، ولكن على كل حال كانت تلك اعتذارات مؤدبة من قادة مكة.

ثم فكر رسول الله في رجل آخر هو المطعم بن عدي فراسله وكان ان وافق المطعم بن عدي على إجارة رسول الله وقال لبنيه وقومه: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت؛ فإني قد أجرت محمدًا. وخرجت كتيبة مسلحة من بني نوفل تستقبل رسول الله وزيد بن حارثة وأحاطت به لحمايته، ودخل في وسطها رسول الله، وسارت به حتى وصل إلى البيت الحرام فصلى هناك ركعتين، وقام المطعم بن عدي، فخطب في الناس فقال: يا معشر قريش، إني أجرت محمدًا، فلا يهجه أحد منكم. ثم سارت الكتيبة المسلحة تحمي رسول الله حتى أدخلته بيته.

وهذا التفكير والطريقة التي استخدمها رسول الله في مراسلته تدل على عمق الفكر السياسي عند رسول الله، وعلى وعيه الكامل بالجذور التاريخية للمنطقة، وعلى حكمته الدبلوماسية في التعامل مع كافة الظروف والأطراف.

من قواعد الفقه السياسي في السيرة النبوية الجزء الثاني (24)

فلسفة الحركة في الدعوة والتنظيم بين السر والعلن

تتعرض كثير من الجماعات الإسلامية إلى الانتكاسات بسبب ضعف الإستراتيجية لديها في التحرك الدعوي والسياسي والعسكري والاقتصادي القائمة على الدمج الكلي حيث تقوم بربطها ارتباطاً عضوياً ظاهراً وهي تواجه أعتا قوى الشر العالمية فتقوم بكشف كل أورقها أمام هذه القوى فيجعل هذه القوى تستشعر خطرها وتنقض على كل مكوناتها وأجنحتها قبل اشتداد عضدها مما يتسبب لها بخسارة فادحة ،

لذلك كان من الحكمة الفصل التام بين هذه الأجنحة مع التناغم عن بعد بحيث لو تم الإجهاز على التنظيم السياسي يبقى النشاط الدعوي دون تأثر ولو توقف الجهاد العسكري يبقى النشاط السياسي يناور وعدم وضع البيض كله في سلة واحدة ..

في المنهج الحركي للإسلام مرت الدعوة الإسلامية بمراحل ثلاث تم فهمها من استقراء السيرة النبوية.

المرحلة الأولى: هي سرية الدعوة وسرية التنظيم:

اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة السرّية خطوة أولى خطاها في سبيل تحقيق إنجاح الدعوة الإسلامية، ولم يكن الغرض من التركيز على السرّيّة في الدعوة الخوف على نفسه وصيانتها من كيد الأعداء، بل هذه هي الخطّة الرائجة بين الدعاة المخلصين لحين تكاثر الإتباع وتحقيق شوكة الردع، فلا يجهرون بالدعوة، ولا يعلنونها بادئ ذي بدء، بل يبدأون بعرض الدعوة سرّاً على الأفراد الذين يطمئنّون لهم ـ ولأجل ذلك ـ بدأ الرسول صلى الله عليه و اله وسلم بالدعوة السرّية إلى الإسلام فدخل تحتها عدّة من الشباب ، فتعلّموا الفرائض والسنن سرّاً وكانوا يذهبون إلى شعاب مكّة فيقيمون الفرائض فيها.

وكان هذا الأمر مع بدايات الإسلام فقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام أهله للإسلام وبعض من يثق بهم وطلب منهم كتمان هذا الأمر كي لا يجهض الإسلام في بداية الدعوة وكان التنظيم سري للغاية تدار اجتماعاته في دار الأرقم بن أبي الأرقم

المرحلة الثانية: الجهر بالدعوة مع سرية التنظيم:

هنا يكون شكل العمل أشبه بالجبل الجليدي القسم المخفي منه يشكل التنظيم والجزء الظاهر هو الدعوة

انتهت مرحلة سرية الدعوة عندما انزل الله تعالى على نبيه " فأصدع بما تؤمر" وهذا أمر مباشر نفذه عليه الصلاة والسلام بكل شجاعة عندما كان يقف في أندية قريش يدعوهم إلى الإسلام، ولكن الانتقال من السرية إلى علانية الدعوة لم يكن بطريقة الطفرة وإنما بتدرج يشبه انسلاخ الليل عن النهار وامتداد النور شيئاً فشيئاً فبدأ الجهر للمقربين من أهل الثقة ثم عشيرته ثم لام القرى ومن حولها ثم للعالمين

كشف النبي صلى الله عليه وسلم ماهية دعوته دون أن يكشف حجم وحركة التنظيم فالتنظيم والدعوة يخضعان لنظام الدوائر والقدرة والشوكة والمصلحة والمفسدة

فالأصل أن يكون السير في العمل الحركي على سير الأضعف مراعاة للقدرة وضعف الأفراد ولكن بعض الحركات الإسلامية جعلت السير على سير الجاهل المتحمس حتى لا يخسره التنظيم

المرحلة الثالثة: الجهر بالدعوة والتنظيم:

فمع الهجرة النبوية وقيام الدولة الإسلامية في المدينة انتهت فلسفة علانية الدعوة وسرية التنظيم، فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً وأصبحت لهم دولة تحكم بالإسلام قائدها خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام. وتحققت للمسلمين شوكة الحماية وصارت الدعوة والتنظيم في العلن..

من هذا السبر لمراحل الدعوة والتنظيم:

نرى ضرورة الربط بين الدعوة إلى الله ووجود تنظيم سري يدير هذه الدعوة، ويصنع قرارتها الإستراتيجية وخططها وبرامجها التشغيلية، في عصر الاستضعاف ضرورة ملحة خصوصا مع تربص ذئاب العلمانية والصهيونية والفرق الباطنية والعملاء بالمشروع الإسلامي وإن كان هذا الأمر ليس أصلاً في الإسلام والأصل أن تكون الدعوة إلى الله علنية والتنظيمات علنية، ولكن في عصر الحروب الباردة والساخنة ضد الإسلام يدخل في باب الاستعانة بالكتمان على قضاء الحوائج فتتبدل الأحكام بتبدل الظروف والأزمان

لذلك على القاعدة الصلبة المؤمنة المستضعفة أن لا ترمي بكل أوراقها في مواجهة الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما:

{أنهم إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أو يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إذا أبداً} (20)، إمّـا هلاك النفس أو ضياع الدين وكلاهما من الضروريات الخمس قد تهدر لضعف التدابير الأمنيّة في الحركة وليتخذوا من سياسة (وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً) سبيلا الى حين استغلاظ الزرع واشتداده على سوقه ليعجب حينها الزراع ويغيظ بهم الكفار

الفقه الحضاري في السيرة النبوية

التفريق بين ثبات المبادئ ومرونة الوسائل بين خصوصية الهوية وبين عمومية الأدوات مشكلة كثير من الحركات الإسلامية فهي تنزل الأدوات والوسائل منزلة المبادئ التي لا يجوز التنازل عنها بحال فقد استمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرة :

1- الخاتم من حضارة الروم
2- والخندق من حضارة الفرس
3- والمنبر من حضارة الحبشة

عباس شريفة (ابو تيم)
مهتم بقضايا التنمية البشرية والفكر الاسلامي والمشروع الحضاري
بلاد الشام

سياسة شرعية

- صلى رسول الله ﷺ وطاف حول الكعبة وحولها 360 صنم.
- في صلح الحديبية: محا رسول الله ﷺ كلمة "بسم الله الرحمن الرحيم" وكتب مكانها "باسمك اللهم"
- ومحا محمد رسول الله وكتبت محمد بن عبد الله. وذلك في مفاوضاته مع سفير المشركين سهيل.
- بعد عودته ﷺ من الطائف دخل مكة في جوار مشرك وحمايته

وهو المطعم بن عدي ولم يدخل بجوار مسلم بل ولم يستعجل المواجهة مع قريش

- تحالف ﷺ مع بعض المشركين وعقد معاهدات معهم؛ ومن أشهرها حلفه مع خزاعة الذي كان سبباً لفتح مكة بعد أن نقضت قريش الصلح
- امتنع رسول الله ﷺ عن قتل بعض المرتدين وعلى رأسهم زعيم المنافقين ابن أبي سلول؛ والسبب حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه
- أخذ رسول الله ﷺ السلاح إجارة من صفوان بن أمية وهو مشرك ليستعين به في غزوةحنين وأعطاه العطايا الكثيرة الكثيرة حتى أسلم
- عفا رسول الله ﷺ عن أهل مكة من المشركين بعد أن قدر عليهم دون أن يشترط عليهم الإسلام وهم من قد حاربه وسموا الطلقاء
- خاطب ﷺ ملوك الأرض في زمانه ووصفهم بما يليق بحالهم رغم كفرهم وشركهم بالله، ومنه قوله (إلى هرقل عظيم الروم) ولم يستعدهم
- فكر رسول الله ﷺ جديا وصرح بأنه يريد أن يعطي المشركين من غطفان ثلث ثمار المدينة لينفضوا عن قتاله ويفرق جمع الأحزاب
- أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم إتفاق الحديبية مع المشركين وفيه شرط أن من جاءه مسلم يرده للمشركين ولا يستقبله في المدينة